المحاضرة الرابعة -٠٤-
تجربة محمد علي باشا الإصلاحية في مصر (الجزء الأول)

١- كيفية ظهور شخصية محمد علي ووصولها إلى الحكم:

كان من نتائج الحملة الفرنسية على مصر ظهور شخصية محمد علي، ذلك الضابط العثماني الذي جاء مع الفرقة الألبانية العثمانية التي اشتركت مع الجيش العثماني في إخراج الفرنسيين من مصر، فواتته الظروف بعد خروج الإنجليز من مصر عام ١٨٠٣م[١]. حيث ساد مصر صراعًا بين المماليك أنفسهم من جهة وبين المماليك والعثمانيين من جهة أخرى[٢]. ولم يحسب الطرفان المتصارعان حسابا لقوة الشعب المصري الذي استيقظ خاصة بعد الحملة الفرنسية على بلاده.

غير أن عودة المماليك والعثمانيين إلى أساليب الظلم والإرهاق بالضرائب السابقة بعد جلاء الفرنسيين قد دفعت الشعب المصري إلى التخلص منهم بقيادة زعمائه من الأشراف والعلماء والتجار مثل "عمر مكرم نقيب الأشراف" ومحمد السادات، من قيادات الطرق الصوفية والشيخ عبد الله الشرقاوي من العلماء، والشيخ محمد المهدي من العلماء، كذلك وأحمد المحروقي من كبار التجار[٣].

هذه القوة المصرية سبق لها وأن ساعدت على إخراج الفرنسيين والتخلص من المماليك والإنجليز، لعبت دورًا كبيرًا من خلال قاعدتها الشعبية على فرض إرادة الشعب المصري في التغيير والتي انتهت فيما بعد بتعيين محمد علي واليا على

---

[١]- سليمان الغنام، سياسة محمد علي باشا التوسعية في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا (١٨١١-١٨٤٠م) "قراءة جديدة"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م، ص ٢٨.

[٢]- نفسه.

[٣]- الحسيني الحسيني معدّى، مذكرات الملك فاروق "١٩٢٠-١٩٦٥م"، دار الحرم للتراث، القاهرة، مصر، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص ٣٦.

مصر[٤]. ولكن قبل ذلك فرضوا الإرادة الشعبية وطبقوها في مختلف الظروف كما يلي:

- فرض الشعب قائده طاهر باشا نائبا عن الوالي "خسرو باشا" بعد أن قام الجند الألبان وهزموه لتأخيره في دفع رواتبهم.
- إستياء الجند الإنكشاريون من ذلك ثاروا على الوالي وقتلوه ونصبوا قائدهم "أحمد باشا" فهاج الشعب بدوره وتمكن بمساعدة محمد علي الذي اختاره الألبان خلفًا لقائدهم المقتول من طرد الوالي والإنكشاريين خارج مصر.
- عاد الحكم إلى المماليك فراح محمد علي يلعب من وراء الستار متقربًا إلى الشعب، مظهرًا أنه نصير له محققا لآماله... إذا وصل إلى الحكم، فوثق الشعب به. ولما تمادى المماليك في إرهاق الناس بالضرائب، توجه الشعب إلى جامع الأزهر يطالب العلماء التدخل لرفع الظلم والغبن عنهم. وكانت النتيجة عن مهاجمتهم وطردهم "المماليك" من طرف الشعب أن هربوا إلى صعيد مصر.
- عيّن خورشيد باشا واليا على مصر فاستصدر فرمانًا بإبعاد محمد علي وفرقته.
- ولما أخطر الوالي جيشًا جديدا بدأ يعيث فسادا في القاهرة ثار الشعب وحاصره وقرّر الزعماء المصريون السابقوا الذكر عزل الوالي وتنصيب محمد علي واليًا خلفا له. ويقول في هذا المضمار عبد الكريم محمود غرايبة: «... وكانت فترة رهيبة غريبة في تاريخ مصر بل وفي تاريخ العرب والإسلام. فقد عزل المشايخ أبناء الفلاحين ممثل السلطان أمير المؤمنين ونصبوا واليًا حسب شروطهم...»[٥].
- فذهب عمر مكرم وعبد الله الشرقاوي إلى داره وأبلغاه القرار وألبساه خلعة الولاية بشرط أن: «يسير بالعدل ويقيم الأحكام والشرائع ويرفع المظالم، وألا يفعل شيئا إلا بمشورة العلماء تحت طائلة العزل متى خالف الشروط».

---

[٤]- نفسه، ص ٣٧.

[٥]- عبد الكريم محمود غرايبة، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م، ص ٧٤.

- ولمّا رفض الوالي خورشيد النزول عن الولاية تلبية لإرادة الشعب وأعيانه، حاصرته الجماهير المسلحة "٤٠ ألف مسلح" في القلعة وأرغمته على الخضوع ومغادرة البلاد وأعلمت الخليفة العثماني بما حصل فخضع للأمر الواقع وأرسل فرمانًا بتوليه محمد علي واليا على مصر يوم ٩ يوليو ١٨٠٥م[٦] ونص الفرمان على أن التعيين كان بسبب إرادة الشعب وتأييده، وهكذا توجت ثورة الشعب المصري بفوز إرادته واعتراف الخليفة بحقه في تقرير مصيره، حيث رضي العلماء والرعية فأقر الباب العالي بذلك وبدأت فترة جديدة من تاريخ مصر الحديث[٧].

٢- تثبيت محمد علي لحكمه:

بعد تسلمه للحكم أخذ محمد علي يفرض وجوده ويعمل على تثبيت أقدامه في مصر والإنفراد بالحكم وقد ساعده على ذلك التخلص من الزعامة الشعبية التي أخذت تضايقه في كل مرة يريد فيها أن يفرض ضريبة جديدة. فاستغل تنافس الزعماء فيما بينهم وكيد بعضهم لبعض، وقضى على تدخلهم في شؤون الحكم.

وعندما ضجّ الشعب وحاول الاستعانة بزعمائه كان محمد علي قد أغرى القسم الأعظم منهم بالمال والمناصب باستثناء عمر مكرم الذي لم تؤثر فيه المغريات، الأمر الذي دعا محمد علي إلى نفيه إلى مدينة دمياط وانفرد بالحكم بعد تحطيم الزعامة الشعبية[٨].

٣- حماية مصر من الأطماع الإنجليزية "حملة فريزر ١٩ مارس ١٨٠٧م":

بعد خروج الفرنسيين من مصر طمع الإنجليز في البقاء فيها ولكن شروط صلح أميان الذي وقعوه مع فرنسا في مارس ١٨٠٢م أرغمهم على الجلاء. إلا أن

---

[٦]- نفسه، ص ٧٥.

[٧]- أحمد زكرياء الشلق، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة "١٥١٦-١٩١٦م"، ط١، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠٠٢م، ص ١٥٨.

[٨]- أحمد إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ج١، مطابع دار البعث، دمشق، سورية، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص٦٨.

فشلهم في منح السلطة لحلفائهم المماليك جعلهم يحاولون احتلال مصر بإرسال حملة عسكرية بقيادة الأميرال فريزر في ١٩ مارس ١٨٠٧م، ولكن هذه الحملة فشلت في البقاء في مصر رغم اتفاقها مع محمد بك الألفي ومساعدته في تولي حكم مصر مقابل منحهم بعض الامتيازات فيها[٩].

وتعود أسباب فشل هذه الحملة إلى مقاومة الشعب المصري لها خصوصا في الإسكندرية ورشيد. وتحفز محمد علي لمقاومتها إذ عقد صلحا مع المماليك الذين كان يحاربهم في الصعيد، وأسرع للقاهرة لصد الحملة غير أنه لم يلتحم معها نتيجة تغير الظروف الدولية حيث عقد نابليون مع روسية صلح "تلسيت" عام ١٨٠٧م اعترف فيه بمطامعها في أراضي الدولة العثمانية، لذا وجدت إنجلترا في هذا الصلح ضالتها دفعتها إلى التقرب من السلطان فسحبت الحملة. وهكذا نظر الشعب المصري لمحمد علي على أنه المنتصر ومحرر مصر من الأجانب[١٠] والمدافع عن الدولة أمام السلطان.

٤- القضاء على زعماء المماليك ونهاية الحكم القديم:

بعد جلاء الفرنسيين عن مصر كان المماليك يطمعون في استعادة نفوذهم ورغم ضعفهم إلى حدّ ما فإنهم ظلوا يشكلون خطرا كبيرا بسبب ثوراتهم وخروجهم على حكومة محمد علي الذي عمل بشتى الوسائل ليرضيهم بالإقطاعات والمرتبات ورغم ذلك لم يكن يرضيهم سوى انتزاع ملك مصر لأنفسهم.

والظاهر تاريخيا أن الهدنة بين الطرفين ظلت قائمة حتى عام ١٨١١م عندما طلب الخليفة العثماني من محمد علي القضاء على الحركة الوهابية في الحجاز، فقد خشي محمد علي من ثورات أو تمردات المماليك إذا ما خرج الجيش إلى الحجاز.

ولذلك دبر لهم مذبحة القلعة في عام ١٨١١م للتخلص منهم إذ دعا جميع أمرائهم إلى وليمة بالقلعة على شرف ابنه طوسون والجيش المسافر معه إلى الحجاز

---

[٩]- عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٤، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ١٩٩٨م، ص ٠٣.

[١٠]- أحمد إبراهيم وآخرون، (المرجع السابق)، ص ٦٩.

لمحاربة الوهابيين. وهناك قتل جميع الحاضرين وكان عددهم ٣٠٠ رجل[١١] فضلا عن انقضاض الجند في الأقاليم على من وجد هناك، ولم ينج منهم إلا عدد قليل هرب إلى بلاد الشام، وهكذا خلا الجو لمحمد علي لينفرد بالحكم ويتصرف بأمور مصر كما يشاء[١٢].

٥- تجربته في تكوين دولة عربية كبرى:

كان محمد علي باشا طموحا وشغوفا لتكوين دولة واسعة نواتها مصر، وساعده على ذلك ضعف الدولة العثمانية نفسها التي كلّفته بإخماد الحركة الوهابية في الحجاز، والقضاء على الثورة اليونانية، مما أسال لعابه في التوسع على حساب جيرانه السودان وسوريا.

أ- ضم بلاد العرب "الجزيرة العربية":

كانت أول حروبه ضد الوهابيين حيث أرسل حملة ١٨١١م و١٨١٨م استطاعت أن تسترد الحجاز من الوهابيين وأن تفرض نفوذها على معظم جزيرة العرب مما رفع مركز محمد علي في نظر الخليفة العثماني وكافأه بتعيين إبنه إبراهيم باشا واليا على الحجاز[١٣].

ولم يكتف محمد علي بذلك فأرسل قواته للإستيلاء على بلاد اليمن وإمارات الخليج العربي[١٤]، ولكن إنجلترا خشيت من هذا التوسع الذي يهدّد مواصلاتها إلى

---

[١١]- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط١٠، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م، ص ٥٤٤.

[١٢]- نفسه.

[١٣]- بدأت حملة إبراهيم باشا على الحجاز عام ١٨١٦م وقد أعدذ لها إعدادا هائلاً صاحبه خبراء وقادة مارسوا الحروب الحديثة. إستسلم أمامه الأمير السعودي عبد الله بن سعود الذي نقل إلى مصر ومنها إلى اسطنبول حيث أعدم هناك. (أنظر سليمان الغنّام، المرجع السابق، ص ص٤٨، ٤٩).

[١٤]- الحسيني الحسيني المعدّى، المصدر السابق، ص ٩٠.

الهند فأسرعت بالإستيلاء على عدن* جنوب اليمن عام ١٨٣٩م[١٥]. وعقدت عدّة معاهدات مع شيوخ الخليج. ولم يهدأ بالها حتى حرّمت محمد علي من هذه الأملاك نهائيا بموجب معاهدة لندن عام ١٨٤٠م[١٦].

ب- ضم السودان:

بدأ ضم السودان من طرف محمد علي عام ١٨٢٠م لرغبته في التوسع وضمان وحدة وادي النيل باعتبار السودان العمق الإستراتيجي والامتداد الطبيعي لمصر، والاستيلاء عليه يحقق له السيطرة الكاملة على البحر الأحمر، والوصول إلى مناجم الذهب والفضة في بعض مناطق جنوب السودان، وأنه يمكن أن يجند السودانيين وفق النظام الجديد[١٧] وملاحقة المماليك الذين فروا من مصر عقب مذبحة عام ١٨١١م، حتى لا يشكلوا خطرا عليه يهدده من الجنوب.

وقد أرسل الحملات بقيادة أبنائه ولم يستغرق الإستيلاء على السودان سوى مدة قصيرة. وبذلك وصلت الحدود المصرية السودانية شرقا إلى البحر الأحمر وحدود الحبشة، ودخلت "سواكن" و"مصوع" الواقعة في إرتيريا حاليا ضمن السودان بعد أن استأجرهما محمد علي من الخليفة العثماني. وامتدت الحدود جنوبا حتى "غندكرو" وغربا حتى حدود "دارفور"، عيّن محمد علي حاكما على السودان "حكمدار السودان"

---

*- عدن: تقع في الركن الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، تربط بين المحيط الهندي والبحر الأحمر، وفي رواية سميت عدن من طرف عدنان لما بناها سماها على اسم ابنه عدن. ويستغرب ياقوت الحموي من ذلك بقوله إن النسابين لا يعرفون إبنًا بعدنان إسمه عدن، ثم يأتي بتفسير لا يقل طرافة وهو إسم أطلقه الأحباش عند غزوهم لليمن. وعند خروجهم إلى عدن قالوا: "عدونا" "عدونة". فسميت بذلك عدن وتفسرها خرجنا. ويقال أيضا: ما اشتق إسم عدن إلا من عاد. (أنظر: إصدارات جامعة عدن، الندوة العلمية عدن بوابة اليمن الحضارية"، دار جامعة عدن، كلية الآداب، جامعة عدن، اليمن، ٢٠١١م، ص ص ٢٨٦، ٢٩٠.

[١٥]- سيد مصطفى سالم، تكوين اليمن الحديث (اليمن والإمام يحي "١٩٠٤-١٩٤٨م)، ط٤، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٩٩٣م، ص ٥٧.

[١٦]- أنظر بنود المعاهدة، سليمان الغنّام، المرجع السابق، من: ص ١٨٩ إلى ص ١٩٢.

[١٧]- مكي شبيكة، السودان عبر القرون، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٤م، ص ٩٣.

وتتركز في يده السلطة المدنية والعسكرية، وبنى مدينة الخرطوم سنة ١٨٢٣م التي أصبحت عاصمة البلاد[١٨].

وقسم السودان إلى سبع مديريات لكل منها مدير يخضع للحكمدار. وكان لهذا النظام أثر كبير في نشر الأمن والعمران والحضارة وبذلك توحيد مصر والسودان وأخذت وحدة وادي النيل شكلها الطبيعي[١٩] كما ساعد على امتداد وزحف المؤثرات العربية الإسلامية إلى الجنوب لولا أن إنجلترا فيما بعد عملت على فصل جنوب السودان عن شماله على أساس عقائدي وقومي.

٦- حربه في اليونان:

وعندما عجزت الدولة العثمانية عن إخماد الثورة اليونانية التي قامت في بلاد المورة جنوب اليونان عام ١٨٢١م[٢٠] طلبت المساعدة من محمد علي في إخماد الثورة، وقبل محمد على ذلك الطلب خوفا من سخط السلطان[٢١] وطمعا في أن يوليه إقليم الشام مكافأة[٢٢] وإبرازًا لقوة الجيش المصري الجديد.

وفعلا تمكن إبنه إبراهيم باشا بفضل الجيش والأسطول المصريين من الإستيلاء على أكثر المدن اليونانية وإخماد الثورة اليونانية لولا تدخل روسيا وإنجلترا وفرنسا لإنقاذ استقلال اليونان[٢٣] بعد اجتماعهم في لندن عام ١٨٢٧م حيث قرروا استقلال اليونان مع دفعه الجزية وعقد هدنة بين الطرفين، وفي حالة عدم موافقة السلطان تتدخل بعض الدول لتنفيذ هذا الاتفاق. وأرسل الحلفاء أسطولاً بحريا إلى المورة، وهناك دبروا مؤامرة نفارين عام ١٨٢٧م التي انتهت بتحطيم الأسطول المصري

---

[١٨]- محمد إبراهيم أبو سليم، بحوث في تاريخ السودان، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص ٣٧.

[١٩]- الحسيني الحسيني، مذكرات الملك فاروق، (المصدر السابق) نفسه.

[٢٠]- محمد فريد بك المحامي، (المرجع السابق)، ص ٤١١ وما بعدها.

[٢١]- نفسه، ص ٤١٤.

[٢٢]- كارل بروكلمان، (المرجع السابق)، ص ص ٥٤٦، ٥٤٧.

[٢٣]- محمد بك المحامي، (المصدر السابق نفسه).

العثماني[٢٤] الجزائري. وعودة الجيش المصري على سفن إنجليزية واضطرت الدولة لعثمانية للاعتراف باستقلال اليونان، مما أدى إلى غضب السلطان ودعوته للمسلمين لمحاربة روسيا، التي أعلن قيصرها الحرب على الدولة العثمانية عام ١٨٢٨م. كما أرسلت فرنسا جيشا لمراقبة إخلاء المورة من الجيش المصري.

والظاهر تاريخيا أن محمد علي فضل أن يحتفظ بقواته وأن يقبل مفاوضة الدول الأوربية، وأن ينسحب من الميدان ويترك السلطان العثماني وحده أمام روسيا، فأثار ذلك غضب السلطان.

٧- ضم الشام:

بلاد الشام هي خط الدفاع الأول الشرقي عن مصر، ولذلك اتجهت أنظار محمد علي لكي يحقق مشروعه في تكوين دولة عربية كبرى تخضع له وليحصل على خيرات الشام من خشب وفحم ونحاس وحديد وزيوت وحرير[٢٥]. ولذلك سعى محمد علي أثناء الحرب الوهابية لدى السلطان ليضيف إليه بلاد الشام بحجة الحصول على إمدادات لإخضاع الوهابيين ولكن السلطان العثماني رفض ذلك[٢٦].

ومن هنا يتضح لنا أن محمد علي لم يكن ليقنع بمصر والسودان وجزيرة العرب فقط بل كان طموحا كما سبق وأن ذكرنا ذلك تاقت نفسه إلى توسيع دولته والاستقلال بها عن السلطان الذي لمس ضعفه في كل مناسبة. وقد برهن أنه أقوى من السلطان العثماني ولاسيما في الحروب التي خاضها باسمه في الجزيرة العربية واليونان.

خاض محمد علي حرب اليونان بطلب من السلطان على أن يمنحه ولاية كريت والموره، إلا أن السلطان لم يف بوعده، فطلب منه ان يمنحه ولاية عَكا تعويضًا له عن خسارته فرفض أن يجيبه إلى طلبه. عندئذ قرّر أن يستقل بمصر

---

[٢٤]- سليمان بن محمد الغنّام، قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية (١٨١١-١٨٤٠م) في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا، ط١، الكتاب العربي السعودي، تهامة، جدة، السعودية، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ص ٧٢.

[٢٥]- عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية، دار إبن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ص٤٥٣.

[٢٦]- نفسه.

وأن يستولي على بلاد الشام لأسباب وقائية حربية من جهة، ولجعلها سوقا تجارية للمنتجات المصرية والاستفادة من ثرواتها الطبيعية الأولية، كما سبق الإشارة إلى ذلك.

وبلاد الشام، فوق ذلك، بلاد عربية شأنها شأن مصر وجزيرة العرب والسودان التي استولت عليها، فلماذا لا يجمعها كلها تحت سلطته فيؤلف بذلك دولة عربية كبرى واحدة تختلف عن السلطة العثمانية بلغتها وتقاليدها القومية؟

ومن هنا أخذ محمد علي يتودّد إلى أمراء الشام ومنهم بشير الشهابي الذي انضم إليه[٢٧] بعد تردد طويل.

٨- الحملة المصرية على الشام وحرب الشام الأولى ١٨٣١م:

انتهز محمد علي فرصة وجود نزاع بينه وبين والي "عكا"[٢٨] "عبد الله باشا الجزار" الذي آوى المصريين الهاربين من ظلم محمد علي، ورفضه إرسال الأخشاب إليه فانتهز محمد علي هذه الفرصة وأرسل إبنه إبراهيم باشا على رأس القوات إلى بلاد الشام يوم ١٤ أكتوبر ١٨٣١م ولم تلبث عكا والقدس وسائر فلسطين ثم بيروت وطرابلس ودمشق وحمص وحلب التي سقطت بعد هزيمة الجيش العثماني بقيادة حسين باشا في بيلان أمام قواته بيد إبراهيم الذي استمر في زحفه حتى تجاوز بلاد الشام. وعندما رفض السلطان الإستجابة إلى طلب منحه الولايات التي استولى عليها اخترق الأناضول "آسيا الصغرى" واستولى على أضنة ثم على قوينة في نوفمبر ١٨٣٢م وأصبح الطريق مفتوحا أمامه إلى الآستانة. بعد أن قضى على الجيوش العثمانية التي تصدت له.

٩- موقف الشوام من الحملة المصرية والحكم المصري "١٨٣١-١٨٤٠م":

قابل الشوام الحملة المصرية على بلادهم بالترحاب واعتبروها محرّرة ومنقذة لهم[٢٩]. وهذا ما سهل الطريق للحملة على الإستيلاء بسرعة على بلاد الشام. فأعلن

---

[٢٧]- كارل بروكلمان، (المرجع السابق)، ص ٥٤٧.

[٢٨]- نفسه.

[٢٩]- نفسه، ص ٥٤٨.

الأمير بشير الشهابي انضمامه إلى جيش إبراهيم باشا، وثار على الدولة العثمانية. وبادر وجهاء سوريا وأعيانها ورؤساء عشائرها إلى المثول أمام القائد المنتصر يعربون عن ولائهم لدولته واستعدادهم لمؤازرته ضد العثمانيين.

كل هذا كان في بداية الأمر، ولكن عندما أدخل إبراهيم باشا النظم الجديدة في سوريا كالتجنيد الإجباري وجمع السلاح من الأهالي واحتكار بعض المحاصيل كالحرير ثار السوريون ضدّ الحكم المصري. وهناك من المؤرخين من يعيدون أسباب ذلك إلى الدسائس العثمانية الإنجليزية الرامية إلى إرباك الحكم المصري وإلهائه بقمع الثورة وصرفه عن مقاومة الجيش العثماني.

حتى أن مدينة حلب أغلقت أبوابها أمام الجيش العثماني القادم لرد المصريين على حين فتحت أبوابها للجيش المصري الذي اعتبرته منقذا.

وأمام هذا الاستقبال الحار والترحاب بالجيش المصري كشف إبراهيم باشا عن أهداف والده وأهدافه من هذه الحرب بإعلانه: «أن جيشه لن يقف إلا عند الحدّ الفاصل بين المناطق التي تتكلم العربية وتلك التي تتكلم التركية وأنه سيحي مجد الأمة العربية، وينصر العرب وسيشركهم في الحكم، ويوليهم المناصب بمختلف أنواعها ودرجاتها من إدارية وعسكرية...».

وكان في كل مناسبة يذكر جنوده –وكلهم من العرب– بمفاخر الأمة العربية، ويصرح بأنه وإن كان تركي المولد فإن شمس مصر، قد بدلته وأصبح لسانه عربيًا[٣٠].

وقد وفّى إبراهيم باشا بوعده فقام بالعديد من الإصلاحات على غرار الإصلاحات التي تمت في مصر، كإنشاء الدواوين، وإشراك السكان فيها، وإعلان عهد من التسامح الديني والمساواة المطلقة بين الطوائف، وجعل الوظائف والمناصب حقًا للجميع دون أي تفريق بين مذهب وآخر، وفتح المدارس العربية على غرار المدارس المصرية فاغتبط الجميع بحكمه[٣١]. وهكذا استطاع محمد علي بفضل

---

[٣٠]– أحمد إبراهيم عبد الله وآخرون (المرجع السابق)، ص ٧٤.

[٣١]– نفسه، ص ٧٥. وانظر كذلك محمد رفعت، التوجه السياسي للفكرة العربية الحديثة، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٤٦.

الجيش المصري الحديث أن يكون إمبراطورية مصرية على حدّ قول الكثير من المؤرخين، ودولة عربية كبرى على حدّ قول الكثير من المؤرخين العرب في المشرق العربي وخاصة القوميين منهم. تمتد من أطنة شمالا حتى "غندكرو" جنوبا"، ومن الخليج العربي شرقا حتى برقة غربا. فكانت أول محاولة لتوحيد العرب وتمييزهم عن الدولة العثمانية.

ولم يبق من الأمة العربية في جناحها المشرقي خارجا عن حدودها سوى العراق الذي حاول محمد علي ضمه ولكنه فشل بسبب مؤامرات الإنجليز ودسائسهم.

والظاهر تاريخيا أن الحكم المصري في سوريا في حقيقة أمره لم يكن كله بركة وخيرا على السوريين، كما كانوا يتوقعونه، فتجريد السكان من سلاحهم الذي اعتادوا حمله منذ سنين طويلة، وجباية الضرائب من الجميع، وفرض الخدمة العسكرية في قسوة بالغة والاحتكار. زد على ذلك، بث الأتراك وحلفائهم الإنجليز بذور الفتن والاضطرابات بين السكان والقبائل المحلية، دفع السوريين إلى الإنقلاب على إبراهيم باشا وحكمه في الشام عبر ثورات محلية عام ١٨٣٤م، واشتدت وتوسعت عندما قامت الحرب من جديد بين الخليفة العثماني وحاكم مصر في عام ١٨٣٩م[٣٢]، لأن الحنين إلى الحكم العثماني قد هيمن على السوريين[٣٣].

أذهلت توسعات محمد علي الدول الأوربية، ولكنها اكتفت بنصحه بوقف القتال، ولكن عندما طلب السلطان مساعدة روسيا، تدخلت إنجلترا وفرنسا وضغطت على محمد علي لوقف القتال، وقبول صلح كوتاهية يوم ١٦ مايو ١٨٣٣م والذي قبله السلطان على مضض، الذي أعطى محمد علي حكم الشام وإبراهيم حكم أطنة دون أن يكون لهما الحق في ثوريتهما من بعدهما[٣٤].

---

[٣٢]- محمد رفعت، (المرجع السابق)، ص ص ٤٦، ٤٧. وأنظر كذلك كارل بروكلمان، (المرجع السابق)، ص ص ٥٤٨، ٥٤٩.

[٣٣]- كارل بروكلمان، (المرجع السابق)، ص ٥٤٩.

[٣٤]- عبد المنعم الهاشمي، (المرجع السابق)، ص ص ٤٥٦-٤٥٧. وانظر كذلك وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، عمان، الأردن، ٢٠١١م، ص ص ٢٣٨- ٢٣٩.